مذهب هذا الفخذ السُنَّة واغلب مقتنياتهم الشاء على ما رأيت. وهم يخضعون جميعهم للدولة العلية ولاسيَّما لوالي بغداد. وقد اشتهر هؤلاء الناس بكونهم طُفَيليين وورَشة يعيشون على نفقة غيرهم من الاعراب. وربَّما قطعوا مسافات عظيمة لتحقيق مُناهم. — ويُروى بهذا الخصوص ان عِزَّيًا طوى شقَّةً في نيَّة ان ينزل كل بضعة ايام في قوم من الاعراب. واتفق انهُ حلَّ ذات مساء في خيمة كانت خيمة اهله (لانك تعلم ان من دأب البدو التنقُّل والترحال) ولمَّا لم يكن يدري بذلك نزل عليهم فلمَّا احسَّ بما وقع لهُ قال: «يا للعجب كيف اني عدتُ بهذه السرعة الى خيمة اصحابي المشؤومة»

واعلم ان اغلب عشائر العزَّة قد تركت عيشة البادية وسكنت القرى والمدُن وهي تتعاطى الآن الاشغال السهلة التأمم كالحالة والبناية ونحوها (التتمة للقادم)

لبنان، بحث في أمجادهِ واغوارهِ

لحضرة الاب هنري لامنس اليسوعي

قد اظهرت ابحاثنا السابقة غير مرَّة خطر لبنان وعظم شأنهِ في سوريَّة. فان كان قول الكتاب الكريم عن بلاد الشام «بانها تدرُّ لبنًا وعسلًا» لا يزال صحيحًا في عهدنا كما صحَّ سالفًا فليس ذلك الَّا من فضل الانهر التي تتولَّد في بطون لبنان ومن تأثير الجبال الشاهقة المكلَّلة بالثلوج الغرَّاء في الهواء واحوال الجوّ. وعليهِ فانهُ من الواجب اللازب ان نبيّن خواص لبنان في وضعهِ وهيئتهِ وبطونهِ وحزونهِ فنشرحهُ تشريحًا لنقف على دقائقهِ وخفاياه. وذلك اقوى عامل لبيان مجاري مياههِ وتفرُّع الانهار على جوانبهِ

قال الجغرافي روكلو (E. Reclus : *Asie Antérieure*) في وصفهِ للبنان: اذا ما ألقيتَ ببصرك من البحر الى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل نظرًا مهيبًا فيلوح لك ازرق او ورديًا في الصيف ومشتملًا في الشتاء والربيع بجلباب ثلجهِ الفضّي. واذا تصاعدتِ الابخرة في الجوّ البستْ قمَّهُ النازحة ثوبًا شفَّافًا هوائيًّا غاية في اللطف. بيد انَّ عذوبة هذا المنظر لا تخلو من سطوة الشدَّة فترى ذلك الجبَّار يتسطَّى بضلوعهِ الشديدة

وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم. على انَّ النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد. فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلومترًا (والاصح ١٨٠ كيلومترًا) اقهب اجرد لا تكسوه الخضرة ورديانهُ متشابهة ومشارفهُ كأنها قُدَّت على قالب واحد»

هذا هو الوصف الذي خصَّهُ ذاك الجغرافي الشهير بلبنان. وان دقَّقنا من بعده في تعريف هذا الجبل قلنا: انَّ لبنان اشبه بجدار عظيم من الصخور وجهتُهُ من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقيّ. وفي الجهة الشرقيَّة تراه ينقطع بغتةً اما من جهة الغرب فهو يتفرَّع فروعًا متعدِّدة على هيئات شتَّى من آكام وبطون وسهول وربًى متسلسلة يدخل بعضها في بعض. واذا استثنيت هذه التفرّعات الثانويَّة والتجعُّدات غير المتَّسقة تحقَّقتَ ان سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظاميَّة وجانب كبير من البساطة. ولذلك قلَّما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقرُّ لها العين وانما البصر يقع على حاجز كبير في حدود الافق يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قمَّتهُ العليا تمتاز عن بقيَّة اقسامه

ومن درس جغرافيَّة سوريَّة ورأى تربَّاتها وافرد لبنان ببحثه لا يرى فيه تلك الأطواد العجيبة التي تقوم في السهول المنبسطة او في وسط الأنجاد المرتفعة فتخلب النظر بمشارفها وقرونها السامية كجبل ڤنتو (Ventoux) في فرنسة وجبل اتنا في ايطالية وبركان تناريف في جزائر كناري وجبل الاقرع في جهات انطاكية او الاولمب في بروسة فانَّ مثل هذه الجبال تأخذ بمجامع القلب لتحليقها رؤوسها في الجوّ. امَّا لبنان فلا اثر فيه لمثل هذه القرون الباسقة التي تنصب ضلوعها المهشَّمة بالاودية فوق قفراتها الاصلية. وكذلك ليس في لبنان مثال لتلك القنن المرؤسة المدعوَّة في بعض البلاد الجبلية كبلاد الالب والپيرناي بالسلات والابر والاسنان كما انهُ خالٍ من القمم المخروطة الشكل او ذات المقاطيع المخروطية. ومجمل القول انَّ ظهر لبنان ينبسط انبساطًا متساويًا على خطّ سوي يبلغ معدَّل علوّه ٢١٢٠ مترًا تركب فوقهُ اهاضيب ورواب محدَّبة تختلط في هيئتها مع السلسلة الوسطى الاصلية

الَّا انَّ للبنان خواصّ اخرى تجعلهُ من الجبال المتازة بينها فمن ذلك تقاطيعهُ التي ترى في المنطف الموازي للساحل. فهناك عددٌ وافر من الاودية والهاوي والشعاب

والأهاب الصعبة المرتقى والوهاد التي تفصل الجبل الى نشوز مختلفة كأنها القلاع الحريزة. وذلك ما سهّل لاهل لبنان ان يعيشوا في جبلهم في الامن والراحة. وكذلك تعدّدت فيه الامم المختلفة التي التجأت اليه وتوطّنته فاختلطت الانساب وتوفّرت المشاكل في تعريف اصولها الشتى

*

وان انتقلنا الآن الى وصف اودية لبنان التي تنوط بها الجاري المائية وجدنا ان وضع هذه المنبسطات والجلون هو على خطّ عمودي بالنسبة الى ظهر الجبل بالعرض منهُ. ولمّا كان الجبل موازيًا للبحر مجاريًا لساحله تحدّرت منهُ السيول الى هذه الاودية فانصبّت في بحر الشام على اقرب طريق. والمياه قد فتحت لها مسيلًا على خطّ مستقيم بعد نفوذها في اعطاف الجبل وخرقها لفروعه الثانويّة. ولو اردنا ذكر الاودية التي هي في لبنان على شكل خط عمودي معترض لتعدّدت الاسماء. فمن ذلك اكثر مجاري السيول كنهر بيروت ونهر الكلب ونهر ابراهيم وامثالها. واكثر وجود هذه الاودية المعترضة في شمالي لبنان اي في مشارفهِ العليا حيث المياه تبلغ معظم قوّتها

الّا انّ ظهر الجبل عند بلوغهِ شمالًا رأس الشقمة يميل ميلًا ظاهرًا الى الشرق وتتّسع فروعهُ الغربيّة وتخفّ منحدراته فترى الاودية اللاحقة به تميل معهُ متّجهة الى الشمال الغربيّ وهي لا تزال مع ذلك تابعة للخطوط العموديّة الّا انّ زواياها بالنسبة الى الساحل اقل انفراجًا فتجري الى البحر من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربيّ. واذا بلغت منتهى لبنان في الشمال الغربي رأيت الانهار كنهر القاديشا ونهر البارد تتفجّر من ضلوعهِ على شكل المروحة نصابها ظهر لبنان المركزي

وفي لبنان ما خلا هذا الاودية العموديّة او المعترضة اوديةٌ اخرى توازي طول الجبل وتجري معهُ على خط مستقيم مثال ذلك شماليّ لبنان في جبل عكّار نهر خالد وما ينصبّ فيهِ من الجداول والسيول. ومثل هذه الاودية الموازية للجبل كثيرٌ في لبنان الجنوبي على جهة طريق الشام الجنوبية فترى مسايل المياه تجاري في سيرها ظهر الجبل في اعاليهِ حتى اذا بلغت اسافلهُ عطفت بغتةً واعوجّت على شكل الزاوية المنفرجة. وان اعتبرت اغلب الانهار الواقعة في تلك الجهات كالليطاني والزهراني والاوّلي والدامور وجدتها على هذا المثال فانّها تجري اوّلًا من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ثم

تغيّر على فور وجهتها وتنفذ في مضايق تسيل منها الى البحر على خط عمودي معترض

وليس بين هذه الانهار ما يقطع ظهر لبنان الّا الليطاني وحده فانّ رأسهُ على منعطف لبنان الشرقيّ وهو يصبُّ في البحر منحدرًا الى منعطفهِ الغربي وذلك من عجائب الامور اذا اعتبرت عمق وادي هذا النهر وقابلت بينهُ وبين ضخم الجبل الذي تخترقهُ مياههُ . ولعلّ ما ارتآهُ في هذا الامر العلامة ت . فيشر لا يخلو من الصواب وهو قولهُ بان الليطاني كان قديمًا في اسفل مجراه نهرًا متسربًا الى باطن الجبل فلم تزل مياههُ تعمل في الصخور التي تخفيهِ عن النظر الى ان اختقها وعليهِ فيكون الجسر الطبيعي الذي يُرى حتى الان في يحمور اثرًا لحالة النهر السابقة وبقيةً من القناطر الصخرية الطبيعية التي جرى تحتها النهر مدّة احقاب عديدة

ومما يجدر بنا قولهُ انّ الاودية اللبنانية وعملها الجسيم انما هو من فعل العوامل الطبيعية التي تعبتها . ألا وهي الثلوج والجليد والامطار والمياه الجارية وكأنها قد تسلّطت على صخور الجبل فنقرتها وحفرتها على شكل الوديان . وذلك امرٌ يسهل الوقوف عليهِ في الامكنة التي ينهبط السيل بين جدران الجبل المركّبة من طبقات صخور نظاميّة فهذه الطبقات ترى على الجهتين مناسبةً لبعضها . وقلّما ترى في لبنان واديًا الّا وتنظر آثار المياه على جانبيهِ فتتحقّق علو مجراها سابقًا ثم هبوطها على مدى الاعصار

وهذا عمل المياه وحرفها للصخور يبدو للعيان في اخوار هلالية تختلف سعةً وعمقًا حُفرت في اواسط الجبل وتتكوّن من مجموع شعابهِ ومن انحنافاتهِ وتهوّراتهِ . واجمل ما يُرى من هذه البطائح جليحتان الواحدة في خلف صنين والاخرى تحت المنيطرة . وعند افقا ابطح آخر قليل الاتساع لكنهُ غاية في الحسن لما يُحدق بهِ من المناظر البهيّة الآخذة بمجامع الابصار

وهي المياه ايضًا حفرت الألهاب اعني الصدوع التي تقوم في الجبل تجاه الناظر اليها كالحائط لا يُرتقى . فانّ السيول بقوّتها قد تخلّلت الصخور ولم تزل تناصبها الحرب حتى غلبت صلابتها ودخلت في قلبها . فمن ذلك وادي نهر ابراهيم في مسيلهِ الاعلى نازلًا عن قرطبة ومضيق نهر الكلب وما يفضي اليهِ من الاودية كنهر صليب ونهر باروك الاعلى مع ملحقاتهِ ونهر الاولي بقرب جزّين . واعظم هذه الألهاب نهر قاديشا فانّ عمقهُ لا يقلّ عن ٥٠٠ متر فيمثل نوعًا مضايق بلاد كولورادو في اميركة فترى فيهِ المياه تهبط من

اعطافه الى اعماقه مزبدةً فتسيل متلويةً في تلك القناة الطبيعية التي خرقتها رغمًا عن صخورها الصمّاء. وهو لعمري منظر مهيب يزيد روعًا اذا قربل بما يحفّ به على جانبي الوادي من الاشجار المتسقة على شكل الدرج ومن الصخور المختلفة الالوان

وللبنان شعابٌ تصل بين منحطيه منها المناقب يتوقّلها السافر فيجتاز وسط الجبلين او الربوتين مشيًا لمنعرجات الوادي ومنها الثنايا والعقبات تسير بين الجبلين المتصبين على متون مرتفعة. مثال ذلك العقبة التي بين العاقورة وأفقا التي تدعى ثنيّة المنيطرة وتُعدّ من اقدم مسالك لبنان ومنافذه. بيد انّ الثنايا قليلة في لبنان لاستواء خط قسمه الاوسط في الارتفاع. فانّ السائر لا يتبطّن الغور بل كثيرًا ما يجري على جانب الوادي او على ظهر الجبل. وفي بعض المجازات كمجاز الباروك وصنين وجبل الارز الذي يبلغ علوّهُ ٢٦٠٠ متر ليس فرقٌ يُذكر بين الجبل وطريق السابلة

*

ان اسم لبنان يُشعر ببياض قمه فانهُ مشتقّ من اصل سامي « لبن » ومعناهُ الجبل الابيض ليس كما زعم البعض لاجل صخوره الكلسيّة التي يتركّب منها بل لما يتوّج رأسهُ من الثلوج الغرّاء. فانّ هذا المنظر في بلاد تتّقد فيها وغرات القيظ كان من شأنه ان يؤثّر في مخيّلة الامم البائدة

ومع هذا ليس في لبنان رأس يبلغ منطقة الثلوج الخالدة. امّا الثالج الجليديّة التجمّدة فلا اثر لها اليوم. وغاية ما يلقاهُ السافر في اعالي جبل الارز احواض مستديرة في أمن من الشمس تتراكم فيها كميّات وافرة من الثلج تبقى فيها حتى في معظم حرارة الصيف. وهذه المستودعات لا تُرى في قمّة جبل المكمل الذي يبلغ ٣٠٠٠ متر لكن في جهاته السافلة المعتزلة عن لثمة الشمس. وكذلك في صنين وفي جبل المنيطرة بعض مثالج كهذه. وعلى رأي علماء الطبقات الارضية لا ينقص لبنان الآمنة متر ليبلغ علوّ الجبال الخالدة الثلوج التي لا يذوب ثلجها صيفًا مع شتاء لارتفاعها وقلّة حرارتها

ومن تفرّع الجبل من الجنوب الى الشمال وجد الجبل يتزايد علوًا وكذلك يتسع عرضًا. ولو تأمّل الناظر من علو الجوّ عرض لبنان بين صيداء ومشغرة لوجدهُ لا يزيد عن ٢٩ كيلومترًا وهو يبلغ بين بيروت وقبّ الياس ٣١ ك ومعظم اتساعه بين طرابلس وهرمل ٤٦ ك. فيكون لبنان على شكل مربع منفرج عن زاويتيه العليوّين (البقية تأتي)